

مفاهيم القرآن

(56) الناس إلى الحقيقة، وإلى الدين الحقيقي؛ بأنه يريد الفساد والعبث بأمن البلاد، كما فعل فرعون لما جاءه موسى - عليه السلام - يدعوه ويدعو قومه إلى الله: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ) (غافر: 26). بل أن الحاكم المستبد لا يمتنع من أن يخادع الجماهير ويضلّ لهم، ويصوّر نفسه مرشداً و هادياً إلى الحقّ إذ يقول القرآن عنه: (قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) (غافر: 29). وقديتوسّل لتثبيت سلطانه؛ بتقسيم المجتمع إلى مستكبر بالغ درجة كبيرة في استكباره ومستضعف محروم من أقلّ حقوقه الإنسانية، فيستعين بالمستكبرين على المستضعفين كما فعل فرعون إذ يصفه الله تعالى: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا) (القصص: 4). إن الاستبداد قد يبلغ بالحاكم المستبد إلى أن يدعي ملكية البلاد كلها وملكيتها انهارها وغيونها، كما ادعى فرعون إذ قال: (وَزَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ) (الزخرف: 51). وإذ لم يكن للحاكم المستبد أيّ رادع من خلق وأيّ وازع من دين؛ فإن استبداده قد ينتهي به إلى حدّ يجعل نفسه مشرّعاً، ويعطي لنفسه حق التشريع والتقنين، ويحمل بذلك اهواءه على الناس في قالب الدين - كما هو الرائج - وهذا هو ما ينهى القرآن عنه إذ يقول: (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِيَتَفَتَرُوا وَعَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ) (النحل: 116). كما أن الاستبداد قد يدفع بصاحبه إلى مساواة نفسه العاجزة بالله في القدرة على بعض الأفعال التي هي من شؤون الله خاصة كالإماتة والإحياء. كما يحدثنا القرآن الكريم عن نمرود وهو ملك آخر من الملوك المستبدّين، إذ يقول عنه: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ، إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، قَالَ أَزَا